وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٥﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٦﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٨﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٩﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢٢٠﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢١﴾

شرح الكلمات:

عشيرتك: العشير: القبيلة؛ القريب؛ الصديق؛ زوج المرأة؛ المعاشر (الأقرب).

اخفضْ: خفَض الشيء: ضدُّ رفعَه، وفي القرآن: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.. أي تَواضَعْ لهم. (الأقرب)

تقلُّبَك: تقلَّبَ على فراشه: تحوَّلَ من جانب إلى جانب. ويُقال: هو يتقلب في أعمال السلطان: أي يتنقل من عمل إلى عمل (الأقرب). والتقلّب: التصرّف (المفردات).

التفسير: يقول الله ﷻ لرسوله الكريم ﷺ: عليك أن تُنذر الناس وتوقظهم، ولكن يجب أن تنذر أقاربك أولاً لأن لهم حقًّا مضاعفًا عليك.

الواقع أن للقرابة تأثيرًا كبيرًا في هذه الدنيا، ونجد في التاريخ أمثلة مذهلة على ذلك. فعندما بدأ النبي ﷺ بنشر دعوته بأمر الله ﷻ لم يدخر الكافرون وسعًا ليمنعوه من الدعوة، ولكن النبي ﷺ لم يحد عن تعاليمه ولم يمتنع عن نشر الحق. فجاء أهل مكة عمه أبا طالب وطلبوا منه أن ينصح ابن أخيه وإلا سيضطرون لمقاطعتهما. فدعا أبو طالب رسولَ الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، لقد وقفتُ بجانبك حتى الآن، ولكن القوم قد جاءوني اليوم وهددوني وقالوا: يا أبا طالب، إنا نحترمك كثيرًا، ولكنا قد قررنا الآن أنك إذا لم تتخل عن محمد فسوف نخلعك من السيادة.

كان أبو طالب إنسانًا فقيرًا ولكنه كان خادمًا لقومه، وكان كل ما لديه هو حب القوم وتعظيمهم له. ذلك أن بعض الناس في الدنيا يكسبون المال فجزاؤهم المال، وبعض الناس يخدمون القوم فجزاؤهم حب القوم لهم. ولما كان أبو طالب يعمل على خدمة قومه ليلاً ونهارًا فلم يملك من الدنيا إلا تعظيم القوم له. ولذلك قال للنبي ﷺ: يا ابن أخي، إن قومي جاءوني اليوم وهددوني بالتخلي عني إذا لم أتخلّ عنك. لقد فكر أبو طالب في نفسه أنه قد أفنى عمره كله في خدمة قومه، وقد هددوه بخذلانه الآن في شيخوخته، فماذا يفعل؟ فاستولت عليه الرقة واغرورقت عيناه بالدموع. ولما رأى النبي ﷺ عمه على هذه الحال وفكر أن عمه قد صنع به معروفًا كبيرًا وأيده ودافع عنه دائمًا رغم أنه ليس بمسلم، وقد هدده القوم أن يدفع ثمن تأييده له ويفقد ثروته الوحيدة التي كسبها في حياته: تعظيم القوم له. فاستولت عليه الرقة أيضًا واغرورقت عيناه، فقال لعمه بصوت شجي: يا عم، إن رسالتي التي أنشرها إنما هي من عند الله ﷻ، ولن أتخلى عنها لقول بشر. ويا عم، إني أعلم أن الله ﷻ واحد، فلن أتخلى عن عقيدة التوحيد إرضاءً لقومي. واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، وأَروا آية كبيرة لم يسبق لها مثيل على أن أقول أن خالق هذا الكون ليس إلهاً واحدًا فلن أفعل ذلك أبدًا. يا عم، إني لا أريد أن تقدم لي هذه التضحية العظيمة، بل إني أشكرك على ما أسديت إلي من أيادٍ من قبل، ولن أحمّلك المزيد من العبء في المستقبل، فيمكنك أن تتركني وأن تخبر قومك أنك تخليت عن ابن أخيك، وأنك معهم من الآن. فأصبح أبو طالب في موقف صعب إذ أصبح أمام محبتين: محبة الرسول ﷺ للحق والصدق، ومحبته لابن أخيه الذي كان يحبه ويهتم به أكثر من أولاده. لقد تذكر أبو طالب أباه عبد المطلب الذي حين جاءته المنيّة وضع يد محمد ﷺ في يده وقال: أبا طالب، إنه يتيم الأبوين، وقُمت بتربيته بحيث إنه كان أعزّ علي من أبنائي. لقد حان أجلي، وإني أثق بك يا بُنيّ، وها إني أُسلّم لك أغلى أمانة لي، فلا تُقصرنّ فيها أبدًا.

إذًا، فقد تمثلتْ أمام أبي طالب روحان: روح أبيه عبد المطلب، وروح ابن أخيه محمد ﷺ الذي كان يدافع عن الحق والصدق بنفسه ومهجته. ولم يستطع أبو

طالب مقاومة هاتين المحبتين رغم أنه لم يكن مسلمًا، فقال للنبي ﷺ: يا ابن أخي اذهَبْ وبلِّغْ دعوتك التي تراها حقًا. إني لا أستطيع أن أترك دين قومي ولكن قومي إذا كانوا سيتخلون عني بسببك فإني مستعد لتقديم هذه التضحية، وسوف أقف بجانبك دائمًا.

فقرر القوم مقاطعة أسرة النبي ﷺ بني هاشم، فذهب أبو طالب بعشيرته وبالنبي ﷺ وبعدد من المسلمين الذين كانوا عندئذ بمكة ليعيشوا في شِعْب قريب من مكة كان ملكًا لأبي طالب. فكل من كان يعادي النبي ﷺ من بني هاشم من قبل ويفرح أن يسبه ويشتمه ويرشقه بالحجارة، ويُؤذيه بتحريض من أبي جهل.. كل هؤلاء تركوا ديارهم وأصبحوا محصورين في شِعْب أبي طالب بسبب حميتهم وقرابتهم للنبي ﷺ معلنين للقوم أنهم لن يتخلوا عن أقاربهم (السيرة الحلبية مجلد١ باب اجتماع المشركين على منابذة بني هاشم).

إذًا، فالقرابة ذات تأثير كبير، وتدفع قرابة الدم أحيانًا إلى تقديم تضحيات تبدو مستحيلة في ظروف أخرى. ولذلك يقول الله ﷻ هنا لرسوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.. أي يا محمد من واجبك تحذير الناس من كل أنحاء العالم، ولكن عليك أن تُنذر أقاربك أوّلاً، فلهم عليك حقّان: فإنهم يهلكون كباقي الناس، ثم إنهم أقاربك وإن آباءهم قد صنعوا بك معروفًا في يوم من الأيام. هناك مثل في الإنجليزية "Charity begins at home" أي أن الإحسان يبدأ من البيت. ونفس الحال بالنسبة للنصح، فعلى الإنسان أن يبدأ النصح بأهل بيته. وعملاً بهذا الأمر الرباني صعد النبي ﷺ على جبل "الصفا" كعادة أهل مكة، وأخذ ينادي كل قبيلة باسمها. فنادى "آل غالب" أولاً، فخرجوا من المسجد الحرام وأتوه، فقال أبو طالب للنبي ﷺ: ها قد جاء "آل غالب"، فقُلْ ما تريد. ولكن النبي ﷺ لم يلتفت إليه، بل أخذ ينادي "آل لؤي". فلما حضروا قال أبو طالب: لقد جاء "آل لؤي" فقل ما تريد. ولكن الرسول ﷺ لم يستمع لقوله وأخذ ينادي "آل مُرّة". فلما حضروا، أخذ ينادي "آل كلاب" و"آل قصي". فحضرت قبائل قريش جميعًا، ومن لم يحضر منها بعث ممثله، ليعلم سبب هذا الاجتماع. فخاطبهم النبي ﷺ وقال: لو قلت لكم

إن جيشًا كبيرًا قد اجتمع وراء هذا الجبل لشن الغارة عليكم، فهل كنتم مُصدِّقِيّ؟ قالوا: بلى، فما جرّبنا عليك إلا الصدق. ويعلم المطّلعون على أحوال مكة أن قول الرسول ﷺ هذا يماثل قول من يُطالب بتصديق المستحيل. ذلك أن أهل مكة كانوا يرعون مواشيهم في ذلك الوادي، وكانوا يعرفون أن من المحال أن يختفي فيه جيش. ولكنهم كانوا متأثرين بصدق النبي ﷺ وسداده لدرجة أنهم صدّقوه وإن لم تصدق عيونهم ما يقول، لأن صدقه أمر لا غبار عليه. فلما اعترفوا بصدقه وسداده بلسان رجل واحد قال ﷺ: ألا إني قد جئتكم بخبر هام. ألا إن الله ﷻ قد بعثني إليكم رسولاً، فاتّبعوني إذا أردتم النجاة من عذاب الله ﷻ. فلم يتمالك أبو لهب نفسه وقال: "تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتَنا". فانفضّ الجميع من حوله ساخرين مستهزئين. ولكن النبي ﷺ ظل ينشر عقيدة التوحيد بين الناس ويبلّغهم رسالة الله رغم ما لاقاه منهم من معارضة وسخرية واستهزاء. فأخرج الله من بينهم قومًا ضحّوا بحياتهم في سبيل الإسلام. (البخاري: كتاب التفسير، قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين، وروح المعاني: سورة المسد)

لقد تبين من هنا أن كل إنسان تأتي عليه ساعات اليقظة والصحوة، فتنفتح نافذة قلبه، ويقبل الحق. لقد كان بين الصحابة من آمن بالرسول ﷺ في أول يوم من دعواه مثل أبي بكر وخديجة وعلي وزيد، ومنهم من آمن به ﷺ بعد عدة سنوات، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما. لا شك أن خالد بن الوليد كان يتمتع بالذكاء والفطنة حين أعلن النبي ﷺ دعواه، ولكن نافذة قلبه لم تكن مفتوحة عندها فلم يؤمن به، وكان عمرو بن العاص أيضًا يتمتع بالذكاء الذي كان يمكن أن يدخله في الإسلام في السنة الأولى من بعثة النبي ﷺ، ولكن نافذة قلبه كانت مغلقة آنذاك فلم يؤمن عندها، بينما كانت نافذة قلب أبي بكر وخديجة وعلي وزيد مفتوحة فآمنوا في أول يوم من دعوته، فبمجرد أن أعلن الرسول ﷺ أنه مرسل من عند الله ﷻ قالوا جميعًا: آمنّا وصدّقنا. ولكن نوافذ قلوب الآخرين انفتحت بعد سنة أو سنتين أو أربع سنوات. وبعضهم آمنوا قُبيل وفاته ﷺ. فالأمر يتوقف على انفتاح نافذة القلب وإلا فإن الحق يؤثّر على الناس حتمًا.

ولكني أرى أن أفراد جماعتنا لا يهتمون بالتبليغ والدعوة بين أقاربهم، فلا يضغطون عليهم بهذا الصدد كما ينبغي. لقد كنت دعوتُ الإخوة ذات مرة إلى الاهتمام بهذا الأمر بوجه خاص، فعملوا بنصحي وكان له تأثير ملموس. فقد أخبرني أحد الإخوة أنه ذهب إلى أقاربه يومًا وقال لهم إما أن تقنعوني فأنضم إليكم أو أُقنعكم فتنضمّوا إلينا. ولأن أدلته كانت معقولة وقوية فأثّرت فيهم فانضموا إلى جماعتنا. الواقع أن المرء لو أقنعَ صاحبه بخطئه فلا يتردد في قبول موقفه، ولكن المؤسف أن إخواننا لا يبدون الشجاعة الكافية في مجال الدعوة بين الأقارب. اعلموا أن من يملك دليلاً أقوى سيُقنع الآخر يقينًا، فلو قام إخواننا بالدعوة بين ذويهم لاهتمّ مئات الآلاف بالأحمدية. ثم إن هؤلاء الكثيرين سيقومون بالدعوة بين عشائرهم فيتسع نطاق التبليغ بما يفوق تصورنا. ألا ترون أن الصحابة أيضًا قاموا بالدعوة، ولكن متى كانت عندهم المطابع والكتب والمنشورات؟ ومتى كانوا دعاة يتقاضون رواتب؟ ومتى كانوا يعقدون الاجتماعات كما هو الحال عندنا؟ كلا لم يكن عندهم أي شيء من هذا القبيل، بل كان أسلوب دعوتهم أنه إذا ذهب الأخ إلى أخته وقالت له: لماذا تركت دين آبائنا، فكان يجيبها: إني أُحب آبائي وأحترمهم، ولكن اتخاذ الأصنام شركاء مع الله ﷻ خطأ فادح، إذ لا يمكن أن تهبنا الأصنام شيئًا، إنما المعطي هو الله وحده. وهكذا كان الواحد منهم يُعلّم صاحبه وحدانية الله ﷻ، فكان يؤمن لو شاء الله له الإيمان. لم تكن هناك خطب ولا منشورات ولا اجتماعات، بل كان مجال الدعوة يتسع بالتدريج من خلال لقاء الأقارب وحديثهم فيما بينهم. لقد رأيت أن بعض الإخوة من جماعتنا قد تركوا الدعوة بين أقاربهم وضيّقوا نطاق علاقاتهم معهم وكأنما انتهت كل صلة بينهم، مع أن من واجبهم الديني والخلقي والشرعي أن يزوروا أقاربهم كثيرًا، ويسعوا لإزالة ما عندهم من سوء فهم. ولكن ما يحدث على صعيد الواقع هو أن أحدًا عندما ينضم إلى الأحمدية أخذ يبتعد عن أقاربه غير الأحمديين. لماذا تعتبرون أنفسكم ضعفاء لهذه الدرجة؟ فإن عندكم الإيمان، وعندكم الحق، وعندكم المعجزات المتجددة، وعندكم الآيات السماوية، وعندكم التأييدات الإلهية. يجب أن يكون الأحمدي

شجاعًا بحيث إذا لم يلتق بعمّه – مثلاً – منذ عشر سنوات فعليه بإنشاء الصلات معه فور انضمامه إلى الأحمدية ليضمه إليها. وأرى أنه يوجد في هذه البلاد حوالي خمسة ملايين شخص من أقارب الأحمديين، فلا حاجة للذهاب إلى الآخرين للدعوة، بل بالحري أن تذهبوا إلى هؤلاء الخمسة ملايين من أقاربكم، وتبينوا لهم الحق. والقيام بالدعوة بينهم عمل جبار بحيث لن تجدوا الفرصة للتوجه للآخرين. وعندما تضمون هؤلاء الخمسة ملايين إلى الأحمدية، فتجدون حوالي عشرة ملايين من أقاربهم الذين يتطلب دعوتهم منكم بذل جهود كبيرة لمدة طويلة. فاتّبِعوا في الدعوة نفس الطريق الذي بينه القرآن الكريم في هذه الآية. وعندما تقومون بزيارة أقاربكم وتزيلون ما لديهم من سوء فهم عن الأحمدية فترون أن آلافًا من الأرواح السعيدة منهم ستُسارع إلى قبول الأحمدية، وإذا لم يقبلوها فلن يجرؤوا على الطعن في جماعتنا على الأقل.

لقد ذكرت لكم مرارًا أنني لما ذهبت إلى الحج ذهبتُ أولاً إلى مصر، ذلك إذ كنت أنوي أن أذهب أوّلاً إلى مصر لدراسة اللغة العربية ثم أؤدي فريضة الحجّ في السنة التالية. وتصادف أني وصلت إلى "بور سعيد" أوّلاً وأقمت هناك قبل أن أذهب إلى القاهرة. فرأيت في المنام في أول ليلة قضيتها هناك أن المسيح الموعود عليه السلام جاء وقال لي: إن كنتَ تريد الحج، فأَسرِعْ واركبْ أول سفينة تخرج بالحجاج. فاتصلتُ بمكتب السفن وحجزت مكاني، وركبت أول سفينة ذهبت بالحجاج بعد ثلاث أو أربعة أيام. ومن عجائب القدر أن الأوضاع تغيرت بعد ذلك فجأة، و لم يستطع الناس من مصر أن يذهبوا للحج لمدة سنتين.

وكان في السفينة التي ركبتها من الهند إلى "بور سعيد" مسلمان ومحامٍ هندوسي. فعلموا أني أحمدي، فأخذوا يناقشونني في الأحمدية، ولكنني لم أدَعهم يعرفون أني ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. فأخذوا يحتدّون في الحوار شيئًا فشيئًا ويوجهون مطاعن شنيعة، ومع ذلك ظللت هادئًا ورددت عليهم بالحجة والبرهان. وكنا قد استودعنا حقائبنا الثقيلة في مخزن الأمتعة على السفينة، فلما وصلنا إلى "بور سعيد" بعد أحد عشر يومًا ذهبت واستلمتُ حقيبتي من مكان

الحقائب. وكان شخص ما قد كتب على حقيبتي اسمي كالآتي: مرزا بشير الدين ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. وبينما أنا أنـــزل من درجات السفينة رأيت هؤلاء الثلاثة يجرون إليّ، فلما اقتربوا مني قلت لهم: ما الذي وراءكم؟ قالوا نرجو منك المعذرة، فإنا قد ارتكبنا حماقة كبيرة. قلت: ما الذي حدث؟ قالوا: لقد أسأنا إليك كثيرًا أثناء الحوار، ولو علمنا أنك ابن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ما تكلمنا بهذا الأسلوب غير اللائق. فقلت: ترون قرابة الدم أهم، وأرى أن القرابة الروحانية هي الأهم. والحق أني أخفيت عنكم قرابتي من مؤسس الجماعة لتخرجوا كل ما في جعبتكم.

إذًا، فقد يصبّ المرء جام غضبه ويسبّ ويشتم أثناء الحوار الديني في أول الأمر، ولكن لو كان في قلبه خشية الله ﷻ لاعتذر في النهاية. لقد رأينا أن كثيرًا من الناس كانوا يسبّون جماعتنا في أول الأمر سبًّا فاحشًا، ثم دخلوا فيها فيما بعد وظلوا طوال حياتهم مخلصين في ولائهم ووفائهم. ورد في التاريخ أنه لما اقترب أجل عمرو بن العاص ﷺ أخذ يبكي بكاء طويلاً، فقال له ابنه: يا أبتِ، لِمَ تحزن وقد وفّقك لخدمة عظيمة للإسلام وسيجزيك عليها خير الجزاء؟ فقال: يا بني، قد جاء في حياتي فترتان: لقد رأيتُني وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ وأُسرته مني، حتى لم أرفع عيني إلى وجهه قط نفورًا وكراهةً، ثم هداني الله ﷻ وألقى في قلبي من حب النبي ﷺ ما منعني من النظر إلى وجهه إجلالاً واحترامًا، ولو سُئلتُ اليوم أن أصفه ﷺ ما استطعت. ولكن بعد وفاته ﷺ قد حصلت منا أخطاء كثيرة، فأخاف أن يسألني الله ﷻ عنها. (مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله)

فترى أن هذا الإنسان العظيم كان يُبغض النبي ﷺ في أول أمره بغضًا شديدًا حتى لم يرفع بصره إليه، ولكنه أحبه فيما بعد حبًا منعه من النظر إلى وجه الرسول ﷺ من فرط حبه وعشقه، لقد رأى النبي ﷺ رؤية عابرة، ولكنه لم يجرؤ على رؤية وجهه بدقة. فلا تيأسوا من هداية القوم، وابدأوا الدعوة بين أقاربكم أوّلاً. فاذهبوا بالحريّ إلى عشيرتكم من إخوانكم وأخواتكم وأقارب زوجاتكم وغيرهم.

وأحسنوا إليهم ووسِّعوا نطاق علاقاتكم معهم، ثم انظروا كيف يبارك الله ﷻ في جهودكم التبليغية.

أتذكر أنني ذهبت لزيارة بعض قريباتي بمدينة "دلهي"، وكانت من أقاربي الأبعدين وكنت أناديها جدتي. فجاء لزيارتها أحد إخوتها من مدينة "حيدر آباد". فدعاني يومًا وقال: ما هو الاختلاف بينكم وبين غيركم من المسلمين؟ وكنت لا أعلم كثيرًا من المسائل العلمية إذ كنت صغير السن، فأجبتُه أننا نحن الأحمديين نقول إن عيسى عليه السلام قد تُوفي، بينما يقول المسلمون الآخرون أنه لم يمت بل لا يزال حيًّا. فقال: كيف تقولون بوفاته عليه السلام؟ فقرأت له قول الله ﷻ: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقلتُ له ألا ترى أن الله ﷻ يقول هنا لعيسى عليه السلام صراحة إنني سأتوفّاك ثم أرفعك، فالوفاة مذكورة قبل الرفع. فقال هذا العجوز البالغ من العمر قرابة سبعين سنة: إن ما تقوله كلام معقول، فلماذا يُعارضكم المشايخ؟ فسمعتْه أخته أعني جدّتي هذه، وكانت متعصبة جدًا فقالت له غاضبة: لماذا تُفسد عقل هذا الولد الخرب العقل سلفًا؟

فترى أن هذا الشيخ الهرم قد جاء لزيارة أخته من "حيدر آباد"، ورغم صغر سني فتَح معي الحوار كوني من أهلها ولو بقرابة بعيدة. فإذا كان الناس يسألون حتى الصغار مثل هذه الأسئلة الهامة، فكيف لا يسألون أقاربهم الكبار من زوج بنت وحم وحماة وعم وعمة وخال وخالة وما إلى ذلك؟ وعندما يسألونك هذه الأسئلة فسوف ينطبق عليهم المثل القائل: إني أترك البطانية ولكنها لا تتركني. يُقال أن رجلين كانا يمشيان على شاطئ قناة في برد قارس، فرأى أحدهما بطانية تسبح في القناة – و لم تكن هناك في الواقع بطانية بل دبٌّ – فقال لصاحبه: انتظر حتى أُخرج البطانية من القناة. فقفز في الماء وأراد أن يمسك البطانية، فأمسكه الدب. فبدأت بينهما معركة، فكان يحاول الرجل الإفلات من قبضة الدب الذي كان لا يتركه. فناداه صاحبه من الشاطئ: تعال اخرُجْ من الماء ولا تؤخرني، فإن أمامنا سفرًا

طويلاً، وإذا كنت لا تقدر على أن تمسك البطانية فاتركها واخرج. فقال الرجل: إني أترك البطانية، ولكنها لا تتركني.

وبالمثل إن هؤلاء القوم عندما سيبدأون بالسؤال عن معتقداتكم سيمهّدون لكم الطريق للدعوة بحيث لا يكون عليكم أي اعتراض شرعًا ولا قانونًا. فما داموا هم الذين قد بدأوا بسؤالكم فكيف يمنعهم شيوخهم من الحوار معكم؟ فمثلاً إذا كان أحد الأحمديين يحاور أمه، فمنعه شيخ من حوارها فتقول السيدة: إنه ابني وأنا أوجه إليه السؤال، فلماذا تقحم نفسك بيننا؟ وإذا كان يحاور حماه فسيقول حموه: هذا صهري، وأنا أسأله، فكيف تمنعني من سؤاله؟ ولأن الحق معكم فستكون النتيجة أن الله ﷻ سيشرح صدورهم في النهاية، ويجذبهم إلى الحق.

واعلموا أن الدعوة ليست بشيء عابر، بل إنها ستستمر إلى الأبد. يقول الله ﷻ في القرآن الكريم مخاطبًا المسيح عليه السلام: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.. وهذا يدل بكل وضوح أن الذين كفروا بالمسيح سيبقون إلى يوم القيامة. وما دام القرآن الكريم قد أكد ضرورة الإيمان بالمسيح، فإن الكافرين به سيكفرون بالقرآن الكريم أيضًا، فثبت من هنا أنه سيكون إلى يوم القيامة قوم لا يدخلون في الإسلام وبالتالي ستظل هناك حاجة لدعوتهم إلى الإسلام. هناك لعبة كانت البنات عندنا يلعبنها في الماضي وقد تلاشت الآن إذ لم أرَهن يلعبنها. فيقف فريق من خمس أو ست بنات في جانب ويقف فريق آخر في الجانب الآخر، ثم تذهب بنات أحد الفريقين إلى الآخر ويسألنهن شيئًا وربما يطلبن يدَ بنتٍ منهن أو شيئًا كهذا، فترفض البنات الأخريات طلبهن، وعندها تبدأ اللعبة. فعندما تقول بنات الفريق الثاني: لن نعطي، تقول بنات الفريق الأول: سنأخذ حتمًا، وهكذا يستمر الجدال والصراخ بين الطرفين ولا ينتهي. كذلك يقول القرآن الكريم سيظل قوم مصرين على الإنكار إلى يوم القيامة، ويقولون: لن نؤمن، ومن واجبكم أن تقولوا لهم: لن نبرح حتى نقنعكم.

إذًا، فيجب أن يكون إيمانكم وحماسكم وغيرتكم أقوى من هذه البنات اللاعبات. فإن فريقًا منهن عندما يرفض، يظل الفريق الآخر مصرًّا على الطلب.

كذلك من واجبكم أن لا تلين قناتكم، بل إذا وجدتم قومًا مصرين على الإنكار فقولوا لهم باستمرار: كلا لن نبرح حتى نقنعكم.

لقد رأيت أن الناس عادة يقولون إن أقاربنا من إخوان أو بني إخوان أو غيرهم لا يستمعون لنا، ولا تنجع فيهم دعوتنا. ولا يفكر هؤلاء المتذرعون أنهم هم الآخرون كانوا في يوم من الأيام إخوانًا أو بني إخوان أو بني أخوات أو أحماء أو أزواج لبعض غير الأحمديين، ولكن الله ﷻ هداهم إلى الأحمدية، فكيف يقولون أن أقاربهم لا يهتدون أبدًا؟ الواقع أن أفراد جماعتنا لا يقومون بدعوة أقاربهم وأصدقائهم المقربين بطريق سليم، وإلا فمن المحال ألا يتأثروا بدعوتهم. الواقع أن لكل قريب حقًّا على أقاربه، ولكل صديق حقًّا على أصدقائه، ولكل أخ حقًّا على إخوته، ولكل زوج حقًّا على زوجته. ولن تجد في الدنيا امرأة تقول إذا كان زوجي سيدخل الجحيم فليدخل، فما لي وله؟ ولن تجد رجلاً يقول إذا كانت امرأتي ستدخل الجحيم فلتدخل، فما لي ولها. فالحقيقة أن الرجل إذا دعا امرأته إلى الحق، أو أن المرأة إذا دعت زوجها إلى الحق، فإنه لا يقوم بالتبليغ، بل إنه يؤدي واجبه تجاهه. وكذلك إذا دعا الأخ أخاه إلى الحق فإنه لا يقوم بالدعوة، بل يؤدي حق أخيه. وكذلك إذا دعا الصديق صديقه إلى الحق فإنه لا يقوم بالتبليغ، بل يؤدي ما عليه من حق؛ وإذا لم يؤدِّ واجبه هذا فإنه ليس صديقًا له بل عدوّا، ولن يعتبره صديقه ناصحًا له بل يعتبره عدوًّا حيث يحرمه من اتّباع الحق. فلو قام كل قريب وكل صديق بواجب التبليغ تجاه قريبه أو صديقه باعتباره حقًا واجبًا عليه فسوف يصل الحق إلى مئات الآلاف في فترة قصيرة.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.. أي يا محمد، عليك بالرفق والعطف على الذين يتبعونك ليزدادوا حُبًّا للإسلام، وعليك بتربيتهم خاصة لتستغلّ طاقاتهم على أحسن وجه. الواقع أن الأمم كمثل الأنهار، فكما أن الأنهار تنبع وتجري، فتتضرر بعض الشعوب المهملة من فيضاناتها التي تغرق قراهم وتدمر أراضيهم، بدلاً من أن تنتفع من مياهها، وغاية ما ينتفعون منها أنهم يصيدون السمك منها. ولكن الأمم الذكية تشقّ من الأنهار قنوات، فتعمر بها أراضيهم

الجرداء وتكسب الملايين. كذلك لو تمّتْ تربية الأفراد ونُفخت فيهم روح التضحية، أمكن استغلال طاقاتهم على أحسن وجه، وتقدمت الشعوب بسرعة هائلة.

الحق أن مثل الجيل القديم كعين ينبع منها النهر، ومثل الجيل الناشئ كمثل جدول، والجيل التالي كنهر صغير، والجيل الذي بعده كنهر عظيم، والجيل الذي بعده كبحر عظيم. فإن المرء إذا أراد الماء من العين اضطر للمشي إليها، ولكن الجدول يجري قريبًا من البيوت وله خرير، ولا يكون المرء بحاجة للذهاب إليه. ثم عندما يتحول إلى نهر صغير فلا يجري قريبًا من البيوت فحسب، بل يتسع ويقترب من البيوت أكثر. وحينما يُصبح نهرًا كبيرًا فيجري قريبًا من البيوت أكثر، ولا يكون هناك خوف من أن يغور ماؤه في الأرض أو يختفي في الرمال، بل إنه يجري قافزًا من على الجبال والتلال والرمال باتجاه البحر. وعندما يتحول إلى بحر فتتصل به أطراف الأرض كلها، فلا يبقى طرف من أطرافها إلا ويكون متصلاً به. كذلك إذا تمّتْ تربية أفراد الجماعة على أُسس سليمة، ونُفخت في أجيالها الصاعدة روح التضحية والإيثار والفداء قدر الإمكان، أصبحوا وسيلة كبيرة لإرساء السلام في العالم. إذا كانت القنبلة الذرية المصنوعة من معدن "اليورانيوم" سلاحًا فتّاكًا مدمّرًا للعالم، فإن استغلال طاقات أفراد الجماعة بطريق سليم ونفخ روح التضحية في الناشئة وتربيتهم الصحيحة لوسيلةٌ يقينية لخلود الأمم، لأن كل فرد يشعر عندها أن جماعته بحاجة لجهوده الشخصية لفتح الدنيا وجعل الإسلام غالبًا على الأديان كلها. هذا هو الأمر الذي بيّنه الله ﷻ في هذه الآية حيث أمر نبيّه ﷺ باتباع طريقين: أحدهما بخصوص المعارضين، وثانيهما بخصوص الموافقين. فعليه بإنذار المعارضين بما فيهم عشيرته الذين يتبعون سبيل الخسران، كما عليه بتربية المؤمنين الذين كثير منهم ليسوا من أقاربك ومع ذلك يتبعونك ويطيعونك، فإن نجاة العالم منوطة الآن بتربيتهم الصحيحة. فقل للقوم: إن الذي لا يُطيعك من أقاربك ويعارضك سينال العقاب، وأن الذي يصدق بما تقول سينال الثواب وإن لم يكن من أقاربك. إن المنكر سيُعاقب وإن كانت بينك وبينه قرابة، وأن التابع سيُثاب وإن

لم يكن بينك وبينه قرابة. فاخفِضْ جناحك بالرفق والرحمة للمؤمنين، سواء أكانوا من الأقارب أو الأباعد.

فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ إن من واجبك أن تستمر في إنذار الأقارب لأنهم إذا لم يؤمنوا سيُعاقَبون، وعليك أن تعتني أكثر فأكثر بالذين آمنوا بك وإن لم يكونوا من أقاربك، فبعضهم من الروم، وبعضهم من فارس، وبعضهم من الحبشة، وبعضهم من الشام، وبعضهم من القبائل العربية غير قريش. ذلك لأنهم هم أقاربك الحقيقيون من الآن فصاعدًا. أما الذين كانوا من أقاربك و لم يؤمنوا بك، فإنهم لم يعودوا أقارب لك لعدم إيمانهم، إنما أقاربك الحقيقيون من آمنوا بك واتبعوك وأطاعوك في كل شيء.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾. اعلم أن ضمير الجمع للغائب في قوله "عصوك" يرجع إلى الكافرين وليس إلى المؤمنين، والمعنى إن عصتْك عشيرتك رغم تحذيرك إياهم واستمروا في سبيل الغي، فقل: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.. أي عليك أن تقطع الصلة عنهم، وتعلن لهم أنك تتبرأ من أعمالهم وتكرهها، فلا يغترّوا بقرابتك فيظنوا أنهم سينالون النجاة وإن لم يتبعوك. لا شك أنهم أقاربك، ولكن النجاة لا تتوقف على القرابة، إنما سبيلها أن يتبعوك ويطيعوك، وإلا فإنهم سيُعاقبون رغم قرابتهم منك.

لقد علّم القرآن الكريم هنا أسلوبًا رائعًا للدعوة والتبليغ، ولو أن المسلمين عملوا به لحققوا نجاحًا كبيرًا. فحيثما ينتشر الإسلام علينا أن نوضح للمسلمين الجدد أن يذهبوا فورًا إلى أقاربهم وأصدقائهم، فيبلغوهم دعوة الإسلام ويُحسنوا معاملتهم، فإن لم يطيعوهم فليقطعوا صلتهم بهم إلى حد ما لكي يتندموا ولكي يظل المؤمنون في مأمن من تأثيرهم السيئ.

وهذا يُماثل قول المسيح للحواريين حين نصحهم قائلاً: "مَن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم، فاخرجوا خارجًا من ذلك البيت أو من تلك المدينة، وانفضوا غبار أرجلكم" (متى ١٠: ١٤).

أما فئة المؤمنين فقد أمر الله رسوله بصددهم: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وتعبيرُ خفضِ الجناح مأخوذ مما تفعل الطيور بأولادها، حيث نرى أن فراخها عندما تكون ضعيفة غير قادرة على الجري أو الطيران فإنها تغطيها بأجنحتها كي لا تخطفها الحدأة وغيرها من الطيور الجارحة. إن الإنسان يكسو أولاده الثياب، ولكن ليست عند الطيور ثياب تكسوها أولادها، فتسترها تحت أجنحتها. فمثلاً إذا حملتَ دجاجة ذاتَ فراخ من مكانها خرجتْ من تحتها العديد من فراخها. فقوله ﷻ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أن من واجبك يا محمد أن توجه عنايتك كلها للمؤمنين وتربيهم على أحسن وجه.

ومن البديهي أن عملية تربية المؤمنين والنهوض بهم إلى أعلى الدرجات لا تخلو من المشاكل والصعاب، ولذلك قال الله ﷻ بعد ذلك: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۞ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. علمًا أن الإنذار والتحذير أمر سهل إذ يتم باللسان، ولكن التربية والإصلاح يتطلب جهودًا كبيرة، ولا يملك المرء سلطة وخيارًا لتربية أحد. فإننا نرى أحيانًا أن الأب يريد أن يصبح ابنه قاضيًا، ولكنه لا يصبح حتى ساعي بريد، أو يريد أن يصبح ابنه عالم دين، ولكنه عندما يكبر يرغب عن علوم الدين كلية. كان الخليفة الأول ﷺ يُخبرنا أنه كان هناك عالم متبحر في الصرف والنحو وكان شهيرًا في الهند كلها، ولكنه كان إنسانًا بسيطًا، ومن رآه لأول وهلة ظنه فلاحًا من القرية، وكان اسمه "المولوي خان ملك". وعندما سمع دعوى المسيح الموعود عليه السلام جاء إلى قاديان، وسمع كلامه وآمن به ورجع. وعندما وصل إلى لاهور أراد أن يزور أحد تلاميذه "المولوي غلام أحمد" الذي كان إذّاك مدرسًا في المسجد الملكي هناك، وكان عالمًا شهيرًا وميسور الحال كونَه يدرس مئات الطلاب في لاهور التي كان أهلها من أهل المال والثراء. فلما وصل "المولوي خان ملك" إلى المسجد الملكي ظن الطلاب أنه أحد العوام إذ كانوا لا يعرفونه ولا مكانته العلمية، فانخدعوا ببساطة مظهره وشخصيته. فسأله "المولوي غلام أحمد": من أين جئت؟ قال: مِن قاديان. فسأله في حيرة: مِن قاديان؟ قال: نعم، من قاديان. قال: لماذا

ذهبت هناك؟ قال: لأنضم إلى أتباع حضرة المرزا. قال: إنك عالم كبير، فماذا رأيت فيه حتى أصبحت من مريديه؟ فقال له باللغة البنجابية ما معناه: دَعْك مِن هذا، فإنك لم تتقن بعد "قال ويقول". فبما أن "المولوي غلام أحمد" هو الآخر كان من مشاهير العلماء، فاستشاط تلاميذه غضبًا وقالوا لِـــ "المولوي خان ملك": ماذا تقول أيها الشيخ الهرم؟! فمنَعهم أستاذهم وقال: اسكتوا، فإن ما يقوله كلام سليم. باختصار كان "المولوي خان ملك" عالمًا ذائع الصيت في الهند كلها في علم الصرف والنحو، حتى قيل أن كتبه تبدو وكأنها أُلّفتْ منذ أربعة أو خمسة قرون.

المهم أن الخليفة الأول ﷺ كان يقول: إن "المولوي خان ملك" شكا إليّ ابنه الأكبر "عبد الله" وقال: إن ابني هذا لا يهتم بالعلم، فانصحْه وقلْ له أنه إذا لم يتعلم اليوم فيخسر خسرانًا كبيرًا. فنصحت ابنه وقلت: إنك ابن عالم ذائع الصيت في الهند، فلماذا لا تتعلم؟ فقال: إنني أريد أن أتعلم ولكن أبي لا يعلّمني. قلت: لقد جاء أبوك يشكوك إلي أنك لا تتعلم، وأنت تقول إنه لا يعلّمك مع أنك تريد أن تتعلم؟ قال: إن أبي يريد أن أتعلم العربية، وأنا لا أريد ذلك، بل أريد أن أتعلم الإنجليزية. قال: لماذا؟ قال: الواقع أنه عندما جاء القطار في منطقتنا أول مرة خرجتُ مع أبي في سفر، ولم يعرف أبي الذي تقول عنه إنه عالم كبير جدًا أن هناك درجتين في القطار: فاقتحم عربة الدرجة الأولى حاملاً حزمة أمتعته، فوجد في العربة مفتش التذاكر الذي كان من الهنود المتَأَنْجْلزين، فنهره قائلا: اخرُجْ، أيها العجوز، من هنا، فمالك ولهذه العربة؟ فخرج أبي من العربة وهرب من المحطة، فجريت وراءه ولكنه لم يتوقف إلا بعد قرابة ميل. فلحقته وقلت له: لماذا فررت؟ قال: لقد أخطأتُ فخفتُ أن يلقي المفتّش القبضَ عليّ. فمنذ ذلك الحادث قررتُ ألا أتعلم العربية أبدًا، بل سأتعلم الإنجليزية فقط، لأن المرء لو صار عالمًا كبيرًا في العربية ومع ذلك ظل جاهلاً لا يستطيع التمييز بين عربات الدرجة الأولى والدرجة الثانية، فما الفائدة من تعلُّم هذه اللغة؟ فإذا كان أبي يريد أن أتعلم فسأتعلم الإنجليزية فقط، ولن أتعلم العربية أبدًا.

فترى أن ابن عالم دين ذائع الصيت ظل محرومًا من علوم الدين رغم أمنية أبيه الشديدة. فالله ﷻ قد بين في قوله ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن التربية والإصلاح عمل جبّار يتطلب جهودًا مضنية، ولا يمكن إنجازه إلا إذا كان الذين يراد إصلاحهم وتربيتهم متصفين بالحماس والإخلاص والطاعة. ولذلك قال الله تعالى من ناحية بصدد المنكرين المعارضين: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ومن ناحية أخرى قال بصدد المؤمنين: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۞ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الواقع أن عملية تربية المؤمنين التي أُمر بها النبي ﷺ ما كانت لتتحقق لو لم تتوفر له ثلاثة عناصر: أوّلُها تأييد الله ونصرته، وثانيها تحلّي النبي ﷺ بحماس تام لتربيتهم، وثالثها تحلّي القوم الذين يريد تربيتهم بروح الطاعة. وقد طمأنَ الله ﷻ نبيه ﷺ بتوفر هذه الأمور له فقال: أوّلاً: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.. أي عليك أن تبدأ هذا العمل متوكلاً على الله ﷻ فإنه ينصرك ويؤيدك حتمًا، وثانيًا: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾.. أي أنه يعلم جيدًا ما فيك من حماس شديد لتربيتهم، وثالثًا: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي أنك تمشي بين قوم متحمِّسين لطاعتك توّاقين لاتّباعك. كان النبي ﷺ يواجه ثلاث مشاكل في مهمته، فقال الله له: إن هذا العمل يتطلب تأييد الله ﷻ وأنا جاهز لتأييدك ونصرتك، وأنه يتطلب حماسًا لتربية المؤمنين وإصلاحهم، وأنت تتحلى بهذه العاطفة، وأنه يتطلب روح الطاعة والاتّباع في الذين تريد تربيتهم وإصلاحهم، وهم متحلون بهذه الصفة، إذًا، فإنجاز مهمتك ليس بمتعذر أبدًا.

وقد قال بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يعني أن آباء النبي ﷺ كلهم كانوا ساجدين أي مؤمنين (التفسير المظهري). ولكن هذا خطأ؛ فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال مرة لأصحابه عن أُمّه: "اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي." (مسند أحمد: مسند أبي هريرة)

فثبت أن نظرية المفسرين عن آباء الرسول ﷺ لا صحة فيها. لا شك أنه قد ورد عن جده ﷺ عبد المطلب أنه كان يحب التوحيد، ولكن يتضح أيضًا أنه كان في

حالة من التذبذب، فكان يميل إلى التوحيد حينًا وإلى الشرك حينًا آخر، فكونه قد نذر لدى بحثه عن بئر زمزم بأن الله ﷻ إذا أعطاه عشرة أولاد فشبّوا وترعرعوا أمام عينيه فسيضحي بأحدهم قربانًا لله ﷻ، وكونه قد اقترع أمام صنم "هُبل"، لَيشكّل دليلاً واضحًا على أنه لم يدرك عقيدة التوحيد إدراكًا صحيحًا (السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ذكر نذر عبد المطلب ذبح ولده). فمن الخطأ القول أن قول الله ﷻ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يدل على أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين حتمًا. إنما الحقيقة أن الله تعالى يثني هنا على الصحابة ويقول للنبي ﷺ إنك تعيش وتتنقل بين ظهراني قوم عابدين ساجدين لله ﷻ، لأن التقلب قد ورد هنا كما ورد في قوله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾(البقرة:١٤٥)، ومعنى التقلب تنقُّل الشيء من هنا إلى هناك. وأي شك في أن النبي ﷺ كان يتنقل دائمًا بين صحابته، فحينًا كان يتشاور في أمر حرب فيجتمع حوله لفيف من القادة، وحينًا آخر كان يفصل في معاملات الناس فيجتمع حوله جماعة من الفقهاء والقضاة، وتارة كان يتحدث عن أمور التصوف فيجتمع حوله جماعة من الصوفية، وتارة أخرى كان يتحدث عن الصدقة فيجتمع حوله أصحاب المال والسخاء. فكان يجتمع عنده ﷺ كل حين عباد مطيعون لله ﷻ من كل نوع. فكلما احتاج النبي ﷺ إلى أمر وجد حوله المؤهلين لذلك المجال الخاص، وليس هذا فحسب، بل كان هؤلاء يعبدون الله ﷻ ويسجدون له أيضًا، وكان النبي ﷺ يتنقل بينهم ليلاً ونهارًا، وهذا هو معنى التقلب في الساجدين. فالمراد من قوله ﷻ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أن الله ﷻ قد أعطى النبي ﷺ صحابة من الطراز الأول، فحيثما توجه وجد ساجدين تلو الساجدين، فإذا توجه إلى القادة وجد عنده قادة ساجدين، وإذا توجه إلى القضاة وجد عنده قضاة ساجدين، وإذا توجه إلى المعلمين وجد عنده معلمين ساجدين، وإذا توجه إلى الصوفية وجد عنده صوفية ساجدين، وإذا توجه إلى المستشارين الاقتصاديين والمدَنيين وجدهم أيضًا ساجدين. فكان يجد في كل مجال من مجالات الحياة أناسًا مؤهلين، وفي نفس الوقت عابدين لله تعالى ومطيعين له ﷺ. وإلى هذه المنة الإلهية قد أشار الله تعالى في هذه الآية حيث قال يا محمد إن كل من حولك موحدون،

وتتنقل بين هؤلاء الموحدين ليلاً ونهارًا. فكم هي عظيمة منّتنا عليك حيث خلقنا لك في أرض مكة المليئة بالشرك كثيرًا من المؤمنين الموحدين، وجعلنا بين أهلها الذين كانوا يعبدون مئات الأصنام ليلاً ونهارًا قومًا متمسكين بالتوحيد، فإذا توجهت إلى اليمين وجدت عبادًا موحدين، وإذا توجهت إلى اليسار وجدت عبادًا موحدين، وحيثما ذهبت لقيت عباد الله ﷻ الموحدين الساجدين.

ومما لا شك فيه أن كفر زوجات نبي أو أولاده لا ينال من مكانته شيئًا، إلا أننا نرى أن زوجات بعض الأنبياء لم يؤمنّ بهم، وأولاد بعض الأنبياء قد أنكروا نبوتهم، بيد أننا نجد أن زوجات النبي ﷺ كُنّ فداءَ الدين، كما كانت ذريته أيضًا فدائيين للدين، وكان أصحابه عشاقًا صادقين للإسلام، فكل من كان على صلة به ﷺ قد جعله الله ﷻ من "الساجدين"، وهذه خصوصية لم توجد في أحد سوى النبي ﷺ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى له: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي أنك حيثما تذهب تكن بين الموحدين الساجدين، ففي بيتك التوحيد، وعند أصدقائك التوحيد، وحيثما تذهب تغرس غراس التوحيد، حتى جعلت آلاف المشركين عابدين ساجدين لله ﷻ.

وأرى من الضروري هنا إلقاء الضوء على أحد أقوال المسيح الموعود عليه السلام بصدد هذا الموضوع. يقول حضرته ما تعريبه:

"يقول الله ﷻ في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي عليك أن تثق بالله الذي هو غالب وذو رحمة، والذي يراك حين تقوم للدعاء والدعوة، بل يراك منذ أن كنت تتنقل كبذرة في أصلاب الصالحين إلى أن استقررت في بطن والدتك العظيمة "آمنة"." (ترياق القلوب (أردو) الخزائن الروحانية المجلد ١٥ ص ٢٨١).

هذه الفقرة تبدو لأول وهلة متعارضةً للمعنى الذي ذكرته آنفًا، ولكن اعلمْ أن كلمة "الساجد" تعني حرفيًا الذي يطيع في كل شيء ولا يوجد فيه أثر للعصيان والنشوز. ولو تدبرتَ أكثر لوجدت أن كلمة "الساجد" يمكن أن تُستعمل بمفهومين: ساجد لله أو ساجد للمجتمع. والساجد لله مَن يتبع أوامر الله ﷻ ولا

يتعدى حدوده وقوانينه، والساجد للمجتمع مَن يطيع أوامر المجتمع ولا يتمرد على قوانينه.

والآن نتوجه إلى معنى هذه الآية. فاعلم أن النبي ﷺ قد قال إن للقرآن الكريم بطونًا عديدة، فمن هذه البطون أننا إذا أردنا تفسير آية فعلينا أن نفسرها آخذين في الحسبان سياق الآيات الأخرى لأن إهمال السياق قد يؤدي إلى الخطأ في التفسير. ومن بطون القرآن أيضًا أن نفسر الآية على ضوء مجموعة كبيرة من الآيات الواردة قبل الآية المُفسَّرة وبعدها. ومن بطون القرآن أن نفسر الآية على ضوء موضوع السورة كلها. ومن بطون القرآن الكريم أن نفسر الآية على ضوء عديد من السور التي قبلها وبعدها. ومن بطون القرآن الكريم أن نفسر الآية على ضوء القرآن الكريم كله. وهناك بطون أخرى للقرآن الكريم أيضًا، وهذا علمٌ قد فتحه الله عليّ خاصة بفضله العظيم، ذلك أن مواضيع بعض الآيات تكون وثيقة الصلة بالسور السابقة لها حينًا أو بالسور اللاحقة حينًا آخر، كما أن الآية الواحدة تؤدي بمفردها مفهومًا بينما تعطي مفهومًا آخر بالجمع مع غيرها من الآيات.

والآن نتدبر المعنى الذي بينه المسيح الموعود عليه السلام لهذه الآية لنعلم بحسب أي بطن فسرها. فلو تعمقنا في الأمر وجدنا أن المفهوم الذي ذكره حضرته عليه السلام لهذه الآية إنما بينه بالنظر إليها منفردةً وليس بالنظر إلى سياقها، إذ اقتبسها في معرض البيان أن رسل الله سبحانه وتعالى ينتمون دائمًا إلى الأسر العريقة الشريفة بحيث لا يمكن أن يكرههم أحد بسبب أسرهم، إذ لو كانوا من أسر رذيلة عند أهل تلك المدينة أو المنطقة أو البلاد صعب عليهم تصديقهم. وإنه لمما يتنافى مع حكمة الله وتدبيره أن يبعث أنبياءه من أُسر وضيعة رذيلة فيحمِّل الناسَ ما لا يطيقون. فبما أن بعث نبي أو رسول من أسرة رذيلة يكون حجر عثرة لطبائع البشر وتحول دون إيمانهم بأنبيائهم، لذا فلم يزل الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل والمأمورين من بيوت الشرفاء والوجهاء لكيلا تنشأ في قلوب الناس مشاعر الكراهية والاحتقار تجاههم من جراء أسرهم.

فثبت أن المسيح الموعود عليه السلام قد بيّن هذا المعنى نظرًا إلى الآية منفردة وليس نظرًا إلى سياقها، موضحًا أن آباء النبي ﷺ كانوا من الساجدين للمجتمع.. أي لم

يكونوا متمردين عليه بل كانوا من المواطنين الشرفاء الوجهاء، ولم يكونوا من الذين يعتبرهم القوم من الأراذل أو العصاة والغدّارين. وقد أخبر النبي ﷺ أن الأنبياء كلهم يُبعثون من أسر عريقة، وهكذا فإن هذا المعنى الذي يذكره المسيح الموعود عليه السلام لا ينطبق على النبي ﷺ وحده بل ينطبق على الأنبياء كلهم؛ وعليه فلا يمكن أن يكون الساجد هنا بمعنى الساجد لله ﷻ، إذ من المعروف أن آباء بعض الأنبياء لم يكونوا ساجدين لله تعالى، فلا بد من التسليم أن الساجد هنا بمعنى الساجد للمجتمع الذي يطيع أهله ولا يتعدى قوانينه.

واعلم أن لكل مجتمع معياره الخاص للشرف والوجاهة، فمثلاً إذا شرب المسلم الخمر اعتُبر غير شريف في مجتمعه، ولكن أحد الإنجليز إذا شربها اعتُبر شريفًا في مجتمعه. فبرغم أن الفعل واحد إلا أننا إذا نظرنا إليه بحسب معيار مجتمع صار شرب الخمر إثمًا وشاربها آثمًا، بينما أصبح عند مجتمع آخر من الشرفاء والمطيعين. فثبت أن معيار الشرف يتغير من مجتمع إلى مجتمع نظرًا إلى أعرافه وقوانينه. ولا شك أن آباء الرسول ﷺ كانوا شرفاء في مجتمعهم، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أنهم لم يكونوا شرفاء صالحين بحسب معيار الإسلام، فثبت أن المعنى الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام إنما بيّنه نظرًا إلى هذه الآية منفردة وليس بالنظر إلى السياق كله، ولكنه مفهوم صحيح دونما شك طبقًا لأحد بطون القرآن الكريم، إذ قد قال الرسول ﷺ إن للقرآن سبعة بطون، فيمكن تفسير آية واحدة بمعان عديدة وكل واحد منها يمكن أن يكون صحيحًا. فهناك مفهوم لآية بالنظر إليها منفردةً، وهناك مفهوم لها بحسب سياق وتسلسل آيات عديدة، وهناك معنى لها وفق سياق السورة وموضوعها كلها، وهناك معنى لها بحسب سياق وتسلسل عدة سور، وهناك مفهوم لها على ضوء القرآن الكريم كله. وكل هذه المفاهيم تكون صحيحة. فالمعنى الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام إنما ذكره نظرًا إلى هذه الآية منفردةً، حيث أثبت أن آباء النبي ﷺ كانوا شرفاء محترمين في مجتمعهم وملتزمين بقوانينه. فكأنه عليه السلام يقول إن أسرة النبي ﷺ كانت عريقة جدًا بحسب المعايير التي وضعها المجتمع العربي للأسر الشريفة العريقة، وليس بحسب معايير الإسلام.

وقد سلّم القرآن الكريم أيضًا بهذا الفرق حيث أحلّ لنا أكل طعام أهل الكتاب بينما حرّم علينا طعام المشركين (المائدة:٦)، مع أن أهل الكتاب أيضًا كانوا يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنـــزير، بينما كان بين المشركين من لا يأكل لحمه أيضًا – علمًا أن المراد من المشرك هنا من لا يؤمن بكتاب، ولكن هذا لا يعني أن من يؤمن بكتاب لا يشرك أبدًا. لا شك أنه بحسب المعنى الدقيق للشرك فإن أهل الكتاب والملحدين أيضًا مشركون، ولكن للمشرك مفهوم بحسب اصطلاح القرآن الكريم ومفهوم آخر بحسب العرف العام حيث أطلق القرآن اسم أهل الكتاب على الذين يؤمنون بكتاب سماوي وإن لم يكونوا عاملين بأحكامه وقوانينه، وإنما إيمانهم به يكفي لتسميتهم أهل الكتاب، شأنهم شأن الكثير من المسلمين الذين لا يعملون بأحكام القرآن الكريم ولكنهم يُسمَّون مسلمين – باختصار إن الله ﷻ قد أحل لنا طعام أهل الكتاب لأنهم ملتزمون حتمًا ببعض الضوابط والأخلاق كونهم أهل كتاب، ويمكن أن نُحسن بهم الظن بأنهم لن يُطعمونا على سبيل الخداع ما هو حرام في ديننا لأن الخداع ليس جائزًا في أي كتاب سماوي. ولكن الذي يعلن بنفسه أنه ليس ملتزمًا بأي قانون سماوي فلا يمكن أن نحسن به الظن وإن كان من الشرفاء، بل سنقول: حيث إنه ليس ملتزمًا بأي قانون سماوي ولا يمنعه من خداعنا مانع، فقد يخدعنا فيُطعمنا ما حرّم علينا ديننا. إذًا، فإن القرآن الكريم إنما أحل لنا أكل ذبيحة أهل الكتاب لأنهم ملتزمون بقانون، وإن كانوا يأكلون لحم الخنـــزير أيضًا، وإنما نهانا عن أكل طعام المشركين لأنهم غير ملتزمين بقانون، فليس هناك مانع يمنعهم من الخداع. فيحل لنا أكل طعام كتابيٍّ وإن لم يكن ذا خُلق من الناحية المادية، ولا يحل لنا أكل طعام مشرك وإن كان ذا خُلق من الناحية الدنيوية؛ ذلك لأن أهل الكتاب ملتزمون بقانون، فاليهود يؤمنون بالتوراة، والنصارى يؤمنون بالإنجيل، والهندوس يؤمنون بالفيدا، وكل هذه الكتب تنهى عن الخداع، ولذلك فقد منحت شريعتنا الإسلامية أهل الكتاب حقوقًا أكثر من غيرهم.

قصارى القول إن آباء الرسول ﷺ كانوا مواطنين شرفاء ملتزمين بقوانين مجتمعهم فسُمّوا ساجدين، ولكنهم لم يكونوا ساجدين لله ﷻ بل ساجدين لقانون

مجتمعهم وبلدهم، وكانوا من أسرة عريقة. والأنبياء يُبعثون دائمًا من الأسر العريقة الشريفة لأنه لو بُعث نبي من قوم أراذل – خلافًا لسنة الله ﷻ – لم يصدقه الناس محتجين بأنه ليس من أسرة عريقة أو أنه من العبيد. فإنك ترى أنه برغم أن موسى عليه السلام لم يكن من العبيد، ومع ذلك عيره فرعون مصر بأنك عشت على خبز بيوتنا كونه قد تربى في بيته (الشعراء:١٩). كذلك تجد النصارى يطعنون في النبي ﷺ حتى اليوم بأنه من ذرية إحدى الإماء، ذلك أنهم يعتبرون هاجر – رضي الله عنها – أَمَةً (التكوين ١٦ :٢)، مع أنه يتضح من التوراة جليًا أن هاجر كانت من أقارب الملك المصري، وأنه قد أهداها إلى إبراهيم بكل حب وإخلاص. فكونها قد قُدّمت لإبراهيم عليه السلام هدية قد دفع النصارى ليعتبروها أَمَة. إذًا، فإن الأعداء ينظرون بمنظار التعصب دائمًا، ولذلك يبعث الله ﷻ رسله دومًا من الأسر العريقة الشريفة كي لا تنقبض قلوب الناس من تصديقهم. فترى أن هرقل قيصر الروم لما وجه بعض الأسئلة إلى أبي سفيان سأله عن نسب النبي ﷺ وقال: "كيف نسبُه فيكم"؟ فما كان لأبي سفيان إلا أن يعترف بأنه من أسرة عريقة وأنه من أقاربه. (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي)

إذًا، فإن المسيح الموعود عليه السلام لم يبين معنى هذه الآية نظرًا إلى سياقها، إنما أثبت بها أن كل نبي يكون من شرفاء قومه، وأن الأنبياء الذين بُعثوا في الدنيا كانوا كلهم من أسر عريقة شريفة، ومن أولاد مواطنين شرفاء ملتزمين بالقانون نافعين للمجتمع؛ فلم يستطع الناس أن يحتقروهم بسبب أسرهم، بل كانوا يحترمونهم ويبجلونهم من هذا المنظور.

قصارى القول، إن المفهوم الذي قد بيّنه المسيح الموعود عليه السلام إنما بينه نظرًا إلى هذه الآية منفردةً، وهناك مفهوم آخر بيّنتُه على ضوء سياق هذه الآية، وهناك مفهوم ثالث أيضًا بالنظر إلى موضوع السورة كلها وهو كالآتي:

تتحدث هذه السورة (الشعراء) أوّلاً عن موسى عليه السلام، ثم عن إبراهيم ونوح وصالح ولوط وشعيب – عليهم السلام – وفي النهاية عن النبي ﷺ. وهناك أنبياء كثر لم ترد أسماؤهم في القرآن الكريم، كما لم يعد تاريخهم محفوظًا. وقد بين القرآن

الكريم كقاعدة عامة أن جميع الأنبياء ظلوا ينبئون عن مجيء رسول الله محمد ﷺ، ولكن أنباء بعضهم محفوظة، وأنباء بعضهم غير محفوظة. فمثلاً لا تزال النبوءات التي أدلى بها إبراهيم وموسى وعيسى موجودة في التوراة والإنجيل، ولكن الأنبياء الذين لم يذكر القرآن أسماءهم وليس تاريخهم محفوظًا فنبوءاتهم عن بعثته ﷺ غير محفوظة. وبعد ذكر هؤلاء الأنبياء كلهم يقول الله ﷻ: كيف يقول المعارضون أن شيطانًا ينـــزل على محمد؟ فليأتوا بسلطان على زعمهم هذا. إن هؤلاء المنكرين بعضهم من اليهود وبعضهم من النصارى وبعضهم من العرب، وكل فئة منهم تؤمن بنبي أو آخر من هؤلاء الأنبياء، فالنصارى يؤمنون بالمسيح، واليهود يؤمنون بموسى ونوح وإبراهيم ولوط، والآخرون يؤمنون بهود وصالح. وقد كانت هناك نبوءات عن بعثة النبي ﷺ من قِبل إبراهيم الجَدِّ الأكبر لأهل مكة، كما كانت هناك نبوءات عن مجيئه ﷺ من قبل موسى عليه السلام الجدِّ الأكبر للنصارى واليهود، فلذلك قال الله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾.. أي أن من أكبر الأدلة على صدقك أن رسل الله كافة ظلوا يخبرون عن مجيئك. وبما أن التقلب يعني التنقل من هنا إلى هناك وعليه فكأن الله ﷻ يقول: يا محمد، لقد ظهرتَ لموسى في حالة الكشف، وقد تجليت على إبراهيم ونوح وهود وصالح، وما دمت موجودًا أمام أعين هؤلاء الأنبياء الذين يؤمن بهم هؤلاء المعارضون فكيف يرفضونك ويتهمونك بالكذب؟ لقد رآك إبراهيم في حالة الكشف فأنبأ عن مجيئك، لقد رآك موسى في حالة الكشف فأخبر عن مجيئك، لقد رآك عيسى في حالة الكشف فأخبر عن بعثتك، لقد أخبر هؤلاء الأنبياء جميعهم أن نبيًا عظيمًا سيُبعث بعدهم. وما دام أجداد هؤلاء المنكرين قد تنبأوا عن بعثتك، يا محمد، معلنين لهم أن نبيًا عظيمًا سيُبعث بعدهم، فعليهم أن يؤمنوا به، فكيف ينكرونك الآن رافضين شهادة آبائهم وكبرائهم؟

إذًا، فكأن قوله ﷻ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ يعني على ضوء موضوع هذه السورة كلها: "وتقلُّبك في الأنبياء".. بمعنى أن إبراهيم قد أشار إليك بإصبعه وقال إنه نبي صادق، وقد أشار إليك نوح وشهد بصدقك، وأشار إليك موسى بإصبعه وقال إنه رسول صادق، وأشار إليك عيسى بإصبعه وقال إنه نبي صادق، وقد أشار

إليك هود وصالح ولوط وشعيب بأصابعهم وقالوا إنه نبي صادق. فأيها المنكرون، ما دام جميع هؤلاء الأنبياء الذين هم أجدادكم قد شهدوا على صدق محمد ﷺ فكيف تكفرون به الآن؟

ثم يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. أي أن الله الذي بعثك بالحق يستمع لدعاء العباد ويعلم حالاتهم.

لقد ثبت من هنا أيضًا أن الآية السابقة تتحدث عن الصلاة والدعاء، وليس عن أجداد الرسول ﷺ، ولذلك قال الله ﷻ بعدها إنه يستجيب دعاء العباد ويعلم أحوالهم، وكأنه تعالى يقول يا محمد، إن أدعيتك وأدعية أصحابك سوف تؤدي إلى نزول تعاليم الإسلام كاملةً، وإلى هذا قد أشير أيضًا في قوله ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه:١١٥). وبما أن هذا دعاء قرآني فما كان الرسول ﷺ وحده يقوم به، بل كان المسلمون كلهم يدعون به، وكان المراد من دعائه ﷺ يا ربّ، أَنزِلْ عليّ القرآن في أكمل وأشمل صورة، وكان المراد من دعاء الصحابة يا ربّ، أعطِنا بواسطة نبينا ﷺ أشمل شريعة وأكملها.

هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢٢﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٣﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٤﴾

شرح الكلمات:

أَفّاك: الأفّاك: الذي يصدّ الناس عن الحق بباطله (الأقرب).

التفسير: لقد قال الله ﷻ من قبل إن هذا القرآن لم تنزل به الشياطين بل إنهم لا يقدرون على ذلك أصلاً، أما هنا فقد بين – للرد على اعتراض الكفار نفسه – علامات القوم الذين تتنزل عليهم الشياطين فقال: ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.. أي لا يكون للشيطان صلة إلا بالأفّاك الأثيم، لأن الشيطان نفسه كذاب، كما أن اسمه يدل على أنه آثم كبير، ولكن محمدًا ﷺ ليس بكاذب ولا آثم، فكيف يمكن أن

تنـــزل عليه الشياطين؟! بل كنتم تعترفون بصدق محمد ﷺ واستقامته. ورد في التاريخ أن النبي ﷺ لما أعلن دعواه اجتمع رؤساء مكة وقالوا إن مكة مركز العرب يجتمع فيه الناس للحج، فإذا جاؤوا هذه السنة للحج وسألونا عن الرسول (ﷺ) فسوف يعتبروننا مخطئين لو أجبناهم بأجوبة مختلفة، فيجب أن نتفق على شيء نقوله لهؤلاء الذين يأتون من الخارج. فقال أحدهم: سنقول لهم إنه كذاب. فقام أحد أعداء النبي ﷺ الألداء واسمه "النضر بن الحارث" وقال: كيف تقول هذا وقد كنا ندعوه صدوقًا أمينًا؟ لو قلنا للناس أنه يكذب فلن يصدقونا، بل سيتهموننا بالكذب قائلين: تقولون عنه الآن خلاف ما قلتم من قبل. (الشفاء للقاضي عياض، المجلد الأول ص ٧٩)

فالله يذكّر الكافرين بأنهم كانوا معترفين بصدق محمد من قبل، فكيف يقولون الآن أن الشيطان قد نـــزل عليه بوحيه. كلا، إنما ينـــزل الشيطان على الكاذبين الآثمين جدًّا، ولكن محمدًا ليس من الكاذبين، إذ عرفوا سيرته وأعماله خلال الأربعين سنة واعترفوا أنه كان أكثرهم صدقًا؛ أفليس من المستغرب أن يزعموا الآن نـــزول الشيطان على إنسان كان أكبر عدو للشيطان.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾.. أي أن الشياطين يتسمعون إلى السماء وأكثرهم كاذبون. ولإلقاء السمع إلى السماء مفهومان: أولهما أنهم يتمنون نـــزول الإلهام عليهم والاطلاع على أخبار الغيب، وتشتد بهم هذه الرغبة لدرجة أنهم بالفعل يتلقون إلهام الشيطان فيَضلّون ويُضلّون. ولكن محمدًا ﷺ لا يطلب من الله ﷻ أن يوحي إليه، بل إنه ﷻ بنفسه يُنـــزل عليه وحيه، وإن محمدًا لا يطلب نـــزول كلام الله عليه جراء هوى النفس ليتفاخر أمام الناس، بل إذا أنـــزل الله بنفسه كلامه عليه فإنه يشكره عليه. أما الأفّاكون الآثمون فيتمنون بشدةٍ نـــزولَ الإلهام عليهم بطريق أو آخر، فيلجأون حينًا إلى المسمرية (Mesmerism)، وحينًا إلى التنويم المغناطيسي (Hypnotism)، وطورًا إلى الأذكار والأوراد، وتارةً إلى الاعتكافات والتأملات، ولا يهدفون من كل هذه الجهود إلا أن يعلموا شيئًا من أخبار الغيب. وكان المسيح الموعود عليه السلام يقول: لا تتمنوا أبدًا

نـــزول كلام الله عليكم، أما إذا أنـــزل الله بنفسه عليكم شيئًا من كلامه وإلهامه فهذا فضله. إذا أردتم أن تسألوا الله ﷻ شيئًا فاسألوه فضله. بيد أن المرء إذا استخار الله تعالى في شيء راجيًا منه أن يهديه بصدده فهذا شيء آخر، ولكن تمني المرء نـــزول إلهام الله عليه دليلٌ على أنه لا يريد أن يحظى بقرب الله ﷻ بل يريد أن ينال العزة بين الناس فقط. ومن أجل ذلك قد نهى المسيح الموعود عليه السلام أفراد جماعته بشدة عن أن يتمنوا نـــزول الوحي والإلهام عليهم. فقال ما تعريبه:

"لا تتمنوا بأنفسكم مكالمة الله ﷻ، لأن المرء إذا تمنى ذلك وجد الشيطان فرصة سانحة فيحاول إهلاكه، بل على المرء أن يهدف دائمًا إلى أن تتيسر له تزكية النفس والتقوى بحسب مرضاة الله ﷻ، وأن يُوفَّق لأعمال حسنة يرضى الله بها. فإذا رضي الله عنه شرّفه بنفسه بمكالماته إذا اقتضت حكمته ومصلحته ذلك. ولكن لا تجعلوا مكالمة الله هدفكم الأساس أبدًا، لأن هذا هو أصل الهلاك، بل يجب أن تكون غايتكم الحقيقية أن تُوفَّقوا للعمل بأحكام الله ﷻ طبقًا لتعاليم القرآن الكريم، وأن تتيسر لكم تزكية النفس، وتستولي محبة الله وعظمته على قلوبكم، وأن تكرهوا الإثم." (جريدة "الحَكَم" ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧ ص ٧).

ويقول عليه السلام أيضًا:

"إن الذين لا تتيسر لهم تزكية النفس بشكل كامل ويرغبون في الرؤى والإلهامات فلا يتيسر لهم إلا حديث النفس وأضغاث الأحلام." (جريدة "بدر" ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٠٧م ص ١٦، خطاب حضرة مسيح موعود عليه السلام جلسه سالانه (أردو) ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٠٦م)

عندما نـــزل وحي الله ﷻ على النبي ﷺ أول مرة رجع إلى بيته قلقًا وقال لخديجة رضي الله عنها: قد خشيتُ على نفسي، ولا أدري أأتحمل هذه المسؤولية أم لا (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان الوحي). أما الكاذبون الذين يتبعون الشياطين فيسعون ليل نهار لمعرفة أخبار الغيب بشتى الطرق من رمل وتنجيم وما

إلى ذلك، وليس هدفهم من وراء ذلك إلا أن يعترف الناس بصلاحهم ويعتبروهم ملجأ لهم ومأوى.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أن هؤلاء الشياطين من البشر يسعون لسماع كلام الله ﷻ وأكثرهم كاذبون. إنهم لا يستطيعون التخلي عن الكذب، فيدسّون أكاذيبهم فيما يسمعونه من كلام الله ﷻ فيُفتضحون. بمعنى أنهم عندما يسمعون من المسلمين القرآن الكريم يلبسونه بأكاذيبهم، ثم يشيعون هذا الكلام المشوه بين الناس زاعمين لهم كذبًا أن هذا ما ورد في كتاب المسلمين.

وليس معنى هذه الآية، كما زعم بعض المفسرين، أن الشياطين تصعد إلى السماء وتحاول الاطلاع على وحي الله ﷻ (الرازي). ذلك لأن هذا مستحيل بحق القرآن الكريم، حيث سبق أن قال الله ﷻ في هذه السورة نفسها: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(الآية:٢١٣)، كما قال الله ﷻ في مكان آخر: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾(الطور:٣٩). فثبت من هنا أن القرآن الكريم يُنكر قدرة أحد من الشياطين على الوصول إلى السماء ناهيك عن أن يسمعوا وحي السماء. إنما المعنى أنهم يسمعون من المؤمنين كلام الله ﷻ، فيدسّون فيه من أكاذيبهم، ثم يشيعون بين الناس هذا الكلام المدسوس لتشويه القرآن الكريم، ثم ينكشف تلبيسهم. فليس معنى هذه الآية أن الشيطان يصل إلى السماء ويسمع الحديث الذي يجري هناك بين الملأ الأعلى وجبريل والعرش، ثم ينـــزل به إلى الأرض، بل المراد أن أمثال الشيطان الذين يلبسون عباءة إبليس يعرضون على الناس وحي السماء بصورة مشوهة بهدف تضليلهم، فتقع فتنة بينهم ويقع كثير منهم في شراكهم. فثبت بذلك أنهم محرومون من سماع كلام الله ﷻ مباشرة. أما ما يسمعونه من الصحف السماوية من وحي سماوي فإنهم يدسّون فيه من أكاذيبهم إغواءً للناس.

وقد بين الله ﷻ هذه الحقيقة في آية أخرى فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ

غُرُورًا﴾(الأنعام:١١٣).. أي لقد حصل في زمن كل نبي محاولاتٌ لخداع الناس كمثل الذي يحصل اليوم، حيث منحنا شياطين الإنس والجن الحريةَ لذلك، فكان بعضهم يُسمع البعض أكاذيبهم ليخدع بعضهم بعضًا.

لقد تبين من هذه الآية أيضًا أن أعداء الأنبياء من كبار القوم وعوام الناس على السواء، لا يخبر بعضهم بعضًا أمور الغيب، إنما يتناقلون فيما بينهم أمورًا باطلة زائفة. وعلى سبيل المثال، قام علماء المسلمين بتفسير القرآن الكريم، كما قام به "ويري" وغيره من المستشرقين، ولكنك حين تقرأ تفاسيرهم تجد أن هؤلاء القسيسين المسيحيين لم يألوا جهدًا لتشويه سمعة الإسلام. فالحق أن المؤمنين والكافرين على السواء يُلقُون السمع إلى أخبار السماء، ولكن هدف المؤمنين أن يسمعوا كلام الله ﷻ ويعملوا به، أما الكافرون فإنما يسمعون كلام الله ليدسّوا فيه الكذب ليُضلّوا الناس ويُبعدوهم عن الله ورسوله.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾. وهنا ينشأ سؤال وهو: قد قال الله ﷻ من قبل إن الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.. أي على كل كذاب أثيم، ثم يقول بعد ذلك ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ مما يفيد أن كل واحد منهم لا يكون كاذبًا بالضرورة.

فليكن معلومًا أن قوله ﷻ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ إشارةٌ إلى أَتباع كل أفّاك أثيم، والمراد أن الذين يتبعون الأفّاك الأثيم أكثرهم كاذبون، إذ ليس ضروريًا أن يكون أتباع الأفّاك الأثيم كلهم كاذبين، بل يمكن أن يكون بعضهم مخدوعًا حيث يتبع زعيمه معتبرًا إياه صادقًا، وبالفعل نجد في الدنيا أناسًا يتّبعون الباطل ظانين أنه الحق؛ فلذلك لم يقل الله ﷻ هنا إن جميع أتباع الأفّاكين الآثمين كاذبون، بل قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾، إذ يكون بعضهم مخدوعًا.

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٧﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٨﴾

شرح الكلمات:

يَهيمون: هامَ على وجهه: ذهَب من العشق أو غيره لا يدري إلى أين يتوجه. (الأقرب)

انتصروا: انتصرَ منه: انتقمَ منه؛ وانتصرَ عليه: استظهر؛ وانتصر: امتنع مِن ظالمه. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة منه تعليقات الكافرين لدى سماعهم وحي الرسول ﷺ، فحينًا سمّوه مجنونًا (القلم:٥٢)، وحينًا آخر زعموا أنه يرى أضغاث أحلام مما دفعه إلى هذه الدعوى (الأنبياء:٦)، وتارة قالوا إنه ساحر (يونس:٣)، وأخرى قالوا إنه شخص طيب ولكن سحَره أحدٌ، أي أنه ليس بساحر بل هو مسحور (الفرقان:٩)؛ ومرةً قالوا إنه كاهن (الطور:٣٠، والحاقة:٤٣)، وأخرى قالوا بل قد علّمه بعض البشر هذا القرآن (النحل:١٠٤)، وحينًا قالوا إنه على صلة بالشيطان الذي يوحي إليه (الحجر:١٥)، وحينًا آخر قالوا إنه مفتر كذاب (ص:٥)، وحينًا ثالثًا قالوا إنه شاعر (الأنبياء:٦). لقد أشار الله ﷻ إلى بعض اعتراضاتهم فقال: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(الأنبياء:٦).. أي أن كلامه ليس إلا كوابيس، بل الواقع أنه قد اختلقه من عنده كذبًا، بل الحقيقة أن طبعه ميال إلى الشعر وتخطر بباله صنوف الخيال، وكلامه فصيح بليغ ككلام فحول الشعراء الذين يتّسم شعرهم بالفصاحة والبلاغة وسموّ الخيال، إذًا فهو مجرد شاعر وليس بإنسان روحاني.

لقد أبطل الله ﷻ في هذه الآيات الاعتراض الأخير وردّ على الكافرين بأن ما يظنونه عن محمد ﷺ خطأ تمامًا بدليل أن الشعراء يتبعهم الذين لا تقوى فيهم ولا روحانية، حيث يتحدث الشعراء عادةً عن الحب المادي والعشق والجنس، فلا يتبعهم إلا الذين هم خلوٌ من الورع والتقوى؛ ولذلك تجد الشباب الطائشين يحفظون مئات من أبيات الشعراء، وتجد القينات يتغنين بشعرهم. وبما أن شعرهم يخلو من ذكر الله ورسوله تمامًا – حيث يثيرون عمومًا الغرائز الجنسية في الشباب، ويضحكون على الناس والوعاظ – فلا يحظون بالشعبية إلا بين الذين لا صلة لهم بالروحانية مطلقًا. أما الذين يتبعون محمدًا رسول الله ﷺ فيقدّمون نموذجًا منقطع النظير للصدق والأمانة والطهارة والعفّة، فيبيتون لياليهم قيامًا وسجودًا ويقضون نهارهم في ذكر الله ﷻ وإعلاء كلمة الإسلام؛ فكيف تقولون عن مثل هذا الإنسان المقدس، الذي صار أتباعه ببركة صحبته صالحين طاهرين، أنه مثل شعرائكم الفاسدين، ويجمع الناس حوله بإثارة عواطفهم؟ كلا، بل إن تحلّي جماعته بالطهارة والورع والتقوى بما لا مثيل له لدليلٌ على زيف ادعائكم، وعلى أنكم قد أخطأتم خطأ فادحًا في فهم مكانة محمد ﷺ.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.. أي أن الشعراء يجمعون في شعرهم كل رطب ويابس ليسرّوا الناس من ذوي الطبائع المختلفة، وليس لهم هدف أو غاية بل يقولون كل ما يخطر ببالهم. وبالفعل لو قرأتَ أي قصيدة لهم لوجدتها مثالاً لقوله ﷻ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾. فمثلاً يقول أحدهم في بيت إني أموت حبًا لحبيبي الذي يُجافيني، وإني على وشك الهلاك جراء جفائه وفراقه، بينما يقول في البيت التالي إنه قد حظي بوصال حبيبه الذي قد أحياه ثانية. ويقول في بيت إنه يستعدّ للقاء حبيبه، بينما يقول في بيت آخر إنه على وشك الموت نتيجة هجرانه. وحينًا يقول إنه يموت عشقًا لحبيبه، مع أنه لا يزال حيًّا يُنشد شعره، ويقول في حين آخر إنه يهيم على وجهه صبابةً، مع أنه يقوم بأعماله على خير ما يرام. وتارة يقول إن حبيبه يعيش في قلبه كل حين، والحق أنه قول باطل تمامًا، وتارة أخرى يقول إنه يبكي دمًا لا دمعًا من أجل حبيبه، مع أنه يعيش بسلام

وراحة، و لم يمت و لم يبك أي دم على فراقه. فلن تجد أي صلة بين بيت وآخر في أية قصيدة من قصائدهم، ولن تجد أي ترابط في أبياتها، بل ستجد فيها تناقضًا على تناقض. ولا يستهدف هؤلاء من ذلك إلا إثارة عواطف الناس سواء أكان في هذه الإثارة خير أو شر. يحاولون إثارة عواطف الناس بأي طريق كان، فتارةً يتكلمون بما يبعث على الفرحة، وأخرى بما يبعث على الحزن. يريدون أن يفرح الجميع بشعرهم مهما كان محشوًا بالكذب وخلاف الحقيقة. يريدون أن يسرّوا الجميع العاشق والمعشوق، والقوي والفقير، والظالم والمظلوم، والغالب والمغلوب. ليس لهم هدف من قرض الشعر إلا أن يسرّوا به كل صغير وكبير. أحيانًا يمدحون بعض الأثرياء لا حبًّا وتعظيمًا له بل طمعًا في مال وعقار أو راتب ومعاش. يقال أن شخصًا جائعًا رأى مجموعة من الناس يذهبون إلى مكان وقد لبسوا حللاً جميلة، فظن أنهم ذاهبون إلى مأدبة طعام، فانضم إليهم ليأكل معهم. فوصل هؤلاء إلى بلاط الملك وأخذوا ينشدون قصائدهم في مدحه.. واحد بعد آخر. فعلِم الشخص الجائع أنهم شعراء وأن كل واحد منهم جاء لينشد شعره في مدح الملك. فوقع في ورطة وقال: ماذا سأفعل، فأنا لا أقدر على قرض الشعر. ولكنه كان شخصًا مازحًا، فلما انتهى الشعراء من إنشاد قصائدهم وأخذوا جوائزهم وذهبوا إلى بيوتهم، قال له الملك: هات ما نظمتَ؟ فقال: لستُ بشاعر. فقال الملك: فلماذا جئت مع الشعراء؟ قال: سيدي أنا من الذين ورد عنهم في القرآن الكريم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.. فهم شعراء وأنا أحد الغاوين. فسُرّ الملك وأمر له أيضًا بجائزة.

لا شك أنها مجرد طريفة، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الذين يتبعون الشعراء يكونون عادة من الغاوين. ذلك لأن الشعراء – كما بينت آنفًا – يقولون مرة شيئًا وأخرى ما يناقضه، ولا مبدأ لهم ولا موقف. تارة ينشدون أبياتًا هزلية ليضحكوا القوم، وأخرى ينظمون لهم حادث شهادة الإمام الحسين رضي الله عنه ليبكوهم، وحينًا يمدحون الناس بقصائدهم وآخر يهجونهم بها. فهم في كل مكان وفي كل واد يهيمون. ليس لهم هدف معين وغاية محددة. أما محمد رسول الله ﷺ فقد بُعث

لنشر وحدانية الله في الدنيا، وهذا هو هدفه الوحيد المسيطر على أفكاره ليلَ نهار، ومن أجله يتحمل صنوف الأذى والتعذيب؛ فكيف تقولون أنه شاعر؟ لو كان شاعرًا لما كان له هدف ولا غاية مثل الشعراء الآخرين، بل مال إلى الأكثرية وحاول إرضاءها، لكنه قد تحدى العالم كله، ويسعى أن يأتي بكل إنسان إلى التوحيد، فكيف تقولون إنه شاعر؟

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾. إن عيوب الشعراء أن قولهم لا ينسجم مع فعلهم، ويقولون ما لا يفعلون. بمعنى أنك تجد أحدهم ينصح الناس بالخلق الحسن ولكنه يشرب الخمر. وإذا وعظ الناس بتقوى الله ﷻ فهو نفسه لا يصلي ولا يصوم. أما محمد ﷺ فعمله مثل قوله وما يعمل به فهو على لسانه أيضًا، فاتهامكم محمدًا بكونه شاعرًا لدليل على تعاميكم عن الحقائق، إذ إن التدبر سيكشف لكم أنه شتان بين محمد ﷺ والشعراء قولاً وعملاً ولا توجد أية مماثلة بينه وبينهم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.. أي نستثني من هؤلاء القوم الشعراءَ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، لأن شعرهم حق ولا يقولون فيه إلا ما يُطابق حياتهم العملية. ومثاله ما نظمه حسان بن ثابت ﷺ من شعر عند وفاة النبي ﷺ، فقد قال معربًا عن حزنه العميق:

كنتَ السوادَ لناظري فعَميْ عَليَّ الناظرُ
مَن شاء بعدك فليمُتْ فعليك كنتُ أُحاذرُ

(ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ﷺ ص ٣٠٨)

أي يا رسول الله، كنتَ حدقةَ عيني، وقد عميتْ عيني بموتك اليوم، فلا أُبالي الآن بموت أحد وإن كان أبي أو أمي أو زوجتي أو أخي أو ابني، لأنني كنت أخاف موتك أنت.

والحق أن حسان بن ثابت ﷺ كان إنسانًا صالحًا وكانت أبياته هذه أيضًا تعبيرًا عن الحقيقة. فالشعراء كمثله ليسوا من زمرة الشعراء الذين سبق ذكرهم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.. أي أن الشعراء المؤمنين يذكرون الله كثيرًا، ولا يقولون بلسانهم فقط بأنهم سيضحون من أجل الحبيب بكل غال ورخيص كما يفعل غيرهم من الشعراء، بل إنهم بالفعل يكافحون وينتصرون عندما يُظلمون في سبيل الدين، وهكذا يؤكدون بأفعالهم ما أعلنوه في أشعارهم من فداء وتضحية للحبيب، بيد أنهم لا يظلمون العدو بل ينتقمون بقدر ظلم الظالم، ولا يعتدون على أحد.

لقد اشترط الله ﷻ في هذه الآية وفي آيات عديدة أخرى العملَ الصالح مع الإيمان. ذلك لأن المنافق أيضًا يدعي الإيمان بالله ﷻ وشريعته، وإن الناس أيضًا يعدّونه من المؤمنين بناء على ما يقول بلسانه، مع أن الواقع أنه لا يؤمن بالإسلام بقلبه كما أن الله ﷻ أيضًا لا يقبل إيمانه. قال الله ﷻ لرسوله الكريم في القرآن الكريم إن بعض الناس يأتونك ويحلفون لك بأنك رسول الله، واللهُ يعلم إنك لرسوله، ولكن الواقع أن هؤلاء يقولون هذا بأفواههم فقط، ولم تؤمن قلوبهم. (المنافقون:٢)

ثم هناك فئة من الناس الذين يظنون في أنفسهم أنهم يدركون حقيقة الإيمان والواقع أنهم لا يعلمون منها شيئًا، ومثلهم كمثل أن تشرح لصاحبك بالإشارة أمرًا فيظن أنه قد فهم إشارتك كما تظن أنت أيضًا كذلك، ولكن يتبين في النهاية أن كليكما لم يفهم قصد صاحبه. وهناك طريفة شهيرة أن أحد الصوفية الإيرانيين قدم إلى بلاط الملك المغولي "أكبر"، وطلب إليه أن يحضر العلماء ليوجه إليهم بعض الأسئلة. فدعا الملك علماءه، فأخذ الصوفي يشير بيده، فقال له الملك: ماذا تفعل؟ ينبغي أن تتكلم حتى نفهم قصدك. فقال الصوفي: الكلام يفهمه الجهلاء أيضًا، وأما الإشارات فلا يفهمها إلا العلماء، فإذا لم يفهم هؤلاء إشاراتي فليسوا بعلماء. فلما عجز العلماء عن فهم إشاراته، وأُعلن أنهم قد فشلوا في مناظرة الصوفي الإيراني، انبرى له "الملا أبو الحسن بن أبي المحاسن" الشهير بـــ"الملا دوبيازه"، وقال للملك: أنا أناظره. فأمر الملكُ الصوفيَّ أن يسأله ما يشاء. فأشار إليه الصوفي بإحدى أصابعه، فأراه "الملا دوبيازه" إصبعين في الجواب. ثم أشار إليه الصوفي بأصابعه

الخمسة، فأشار إليه "الملا دوبيازه" بقبضة يده. ثم خطّ الصوفي على الأرض دائرة، فتقدم "الملا دوبيازه" وجعل في وسط الدائرة نقطة. فقال الصوفي لا أريد أن أسأله المزيد لأنه عالم كبير. ولما انفضّ المجلس سأل الناسُ الصوفيَّ: ماذا قصدتَ حين أريته إصبعًا؟ قال: كنت أعني بها أن الله واحد، وقد أجاب عليه "الملا دوبيازه" إجابة صحيحة حيث قال: صحيح أن الله واحد، ولكن معه رسوله أيضًا. ثم لما أريته أصابعي الخمسة فكنتُ أعني أن بناء الإسلام على الخمسة المباركة،[٥] فأراني "الملا دوبيازه" في الجواب قبضة يده ليقول: لا شك أن بناء الإسلام على الخمسة المباركة، ولكنهم في الواقع كشخص واحد. ثم خططتُ على الأرض دائرة لأقول إن الأرض كروية الشكل، فجعل "الملا دوبيازه" في وسط الدائرة نقطة ليقول إنها كروية الشكل، ولكنها تدور حول محورها. ثم قالوا "للملا دوبيازه": ماذا فهمت من إشارات الصوفي؟ قال إنه لما أراني إصبعه ظننت أنه يهددني بأنه سيفقأ عيني، فأريته إصبعين مهدَّدا إياه بأني سأفقأ عينيه الاثنتين. ثم إنه لما أراني يده مبسوطة ظننت أنه يهددني باللطم على وجهي، فأريته قبضة يدي لأقول له إني سأوجه إليه لكمة. ثم إنه خط على الأرض دائرة، ففهمت أنه يقول إن الإنسان لا بد له من الخبز، فوضعت في وسطها نقطة لأقول له إن الخبز وحده لا يكفي، بل لا بد من حبة بصل معه.

هذا هو حال المرء الذي يقول بلسانه إنه مؤمن ويظن أنه يعرف حقيقة الإيمان مع أنه لا يعرف منها شيئًا.

إذًا، فهناك من الإيمان ما يقرّ به المنافق بلسانه فقط ساخرًا بالناس، فيصدقونه ويعتبرونه مؤمنًا، ولكن الله ﷻ يعرف حقيقة إيمانه جيدًا. وهناك نوع آخر من

---

[٥] ومراده من الخمسة المباركة ما أشار إليه بعض الشيعة في البيت التالي:
لي خمسةٌ أُطفي بها حَرَّ الوباء الحاطمةْ
المصطفى والمرتضى وابناهما والفاطمةْ
(المترجم)

الإيمان حيث يؤمن المرء ويظن أنه يعرف حقيقة الإيمان حق المعرفة مع أنه لا يعرف منها شيئًا. ثم هناك نوع ثالث من الإيمان حيث يدرك المؤمن حقيقة الإيمان جيدًا، ويقول الناس إنه مؤمن، ويقول الله ﷻ أيضًا إنه مؤمن فعلاً. ومثل الإيمان من النوع الأول كمثل شخص ينـــزع شجرة صغيرة من الأرض ويحملها في يده ولا تكون جذورها راسخة في الأرض. ومثل الإيمان من النوع الثاني كمثل شجرة تكون ثابتة في الأرض في بادئ الأمر، ولكن لا تكون جذورها متأصلة في الواقع، فتسقط إذا ما دفعها المرء دفعة بسيطة. ومثل الإيمان من النوع الثالث كمثل شجرة عظيمة أصلها ثابت في الأرض، فلا تقدر الرياح العاتية على زعزعتها. وهذا هو الإيمان الحقيقي الذي يتسبب في نجاة الإنسان، ولا بد معه من العمل الصالح أيضًا.

ولا يغيبنّ عن البال أن ما نسمّيه عادةً الأعمال الحسنة أو ما يقال بالإنجليزية Good Actions لا يعتبره القرآن أعمالاً صالحة، ولن تجد في القرآن الكريم كله لفظ الخير بمعنى العمل الحسن – إلا ما شذ وندر – بل تجد القرآن يستعمل له دائمًا كلمة "العمل الصالح"، ذلك لأن الحسنة عند القرآن الكريم هو العمل الذي يكون بحسب مقتضى الحال، وإذا لم يكن كذلك فلن يسمَّى عملاً صالحًا. فمثلاً لو سألت الناس عن الأعمال الحسنة قالوا: الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وما إلى ذلك، ولكن القرآن يخبرنا أن من الصلوات ما هو معصية وسيئة، وأن من الصيام والصدقة والزكاة ما يجلب لصاحبه غضب الله ﷻ بدلاً من أن يُكسبه الثواب. فثبت أن الصلاة وحدها ليست بعمل حسن. لو كانت الصلاة في حد ذاتها عملاً حسنًا لما قال الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾(الماعون:٥)، ولما لعَن المصلّين الذين يصلّون رياءً ليقول عنهم الناس أنهم من كبار الزهاد العابدين. وكذلك من صام يوم العيد فهو شيطان في الإسلام (البخاري: كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي). ومن حج بدون أن تتوفر فيه شروط الحج فلن يُعَدّ عمله عملاً صالحًا، ومن أخرج الزكاة بدون أن تكون فرضًا عليه فلن يُعَدّ عمله عملاً صالحًا. إنما العمل الصالح ما يكون بمقتضى الحال وملائمًا للموقف، ولذلك قال الله ﷻ في القرآن مرارًا في وصف المؤمنين: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. يظن الناس خطأ أن

الصلاة أو الصيام أو الحج أو الزكاة هي التي تتسبب في نجاة الإنسان، مع أنه لا يُنجي المرءَ إلا الصلاة التي يُصليها بمقتضى الحال. فمثلاً إذا كان المسلمون في قتال وكان الكفار يقتلونهم ويتقدمون، فأخذ المرء السجادة وشرع في الصلاة فسوف يقال أن لا صلاة له، إذ الوقت وقت الجهاد والقتال وليس وقت الجلوس على السجادة للتسبيح والتهليل. وبالمثل إذا لم يؤد المرء صلاته في وقتها بل قال إني ذاهبٌ للجهاد، فنقول إنه يتذرع بالجهاد فرارًا من الصلاة. فثبت أن الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج أو الجهاد ليس بحد ذاته سببًا لنجاة المرء، وإنما نجاته في عمل يقوم به بمقتضى الحال والظرف.

وثاني خصال المؤمنين المذكورة في هذه الآية هي قوله ﷻ: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. اعلم أن طبائع الناس مختلفة، فمنهم من يركّز على الذكر إذا كان منفردًا، ومنهم من إذا رأى الآخرين يذكرون الله ﷻ تحمس للذكر، ولذلك قد جمع الله ﷻ في الصلوات كلا النوعين من الذكر: الفردي والجماعي. ففي صلاتي الظهر والعصر يقوم كل واحد بذكر الله ﷻ منفردًا، فيقوم الإمام بالذكر في صمت ويقوم كل واحد من المصلين بالذكر في صمت. أما في صلوات المغرب والعشاء والفجر فقد أمر الله ﷻ المصلين أن يردّدوا الفاتحة وراء الإمام، ولكنه حين يقرأ بعدها شيئًا من القرآن الكريم فليستمعوا له صامتين. إذًا، قد جعل الله ﷻ المصلين تابعين للإمام تمامًا في بعض أجزاء الصلاة، فإذا كبّر كبّروا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، ولكن عندما لا يجهر الإمام بشيء في الصلاة فكل واحد منهم حرٌّ في أن يذكر الله كما يشاء، فيقوم الإمام بدعاء ويقوم المقتدي بدعاء آخر. وهكذا شفى الله ﷻ غليل جميع الناس ذوي الطبائع المختلفة، سواء الذين يتحمسون لذكر الله ﷻ إذا رأوا الآخرين يذكرونه، أو الذين يستمتعون بالذكر والعبادة على انفراد؛ ذلك لأن من الناس من لا تتولد فيه الرقة والبكاء مطلقًا إذا كان يدعو مع الآخرين، ومنهم من إذا سمع بكاء غيره استولت عليه الرقة فأخذ يبكي ويئنّ، مع أنه كان لا يجد أي حماس للبكاء من قبل. ولكن المؤمن الكامل من يذكر الله ﷻ على انفراد وأيضًا مع الآخرين، ولذلك قد حثّ الإسلام كثيرًا على الذِكر الفردي

وعلى الذكر في المجالس والاجتماعات أيضًا. فعندما يجتمع المسلمون للحج يذكرون الله ﷻ، وعندما يجتمعون للعيدين يذكرون الله ﷻ، وعندما يشتركون في حفلات الزواج يذكرون الله ﷻ، وعندما يشتركون في الجنازات يذكرون الله ﷻ أيضًا. فلكي تكون اجتماعاتنا ومجالسنا بكل أنواعها مباركة أمرنا الإسلام بذكر الله ﷻ فيها، كما ركّز على أهمية الذكر الفردي أيضًا مرارًا، فحثّنا على الدعاء حتى قبل الطعام وبعده، وعند الخروج للسفر والقفول منه، ووقت الفرح ووقت الترح، وعند دخول المسجد والخروج منه، وعند الصعود على مكان مرتفع وعند الهبوط منه، وعند رؤية المرآة وعند تغيير الثياب، وعند رؤية الهلال، وحتى عند لقاء الزوجين. كما أمرَنا أن نبدأ كل عمل بالبسملة وإلا سيخلو من البركة. (الترمذي، أبواب الأطعمة، وأبواب الدعوات، وأبواب الصلاة، وأبواب اللباس، والبخاري: كتاب الدعوات، وكتاب الجهاد والسير، ومسند أحمد المجلد الأول ص ٤٠٣)

لا شك أن الإسلام قد أمرنا أن نقوم بعد كل صلاة بالتسبيح ثلاثًا وثلاثين مرة والتحميد ثلاثًا وثلاثين مرة وبالتكبير أربعًا وثلاثين مرة (الترمذي، أبواب الصلاة)، ولكنه أيضًا أوضح أن المؤمنين لا يكتفون بهذا العدد من التسبيح والتحميد والتكبير، بل يذكرون الله كثيرًا فيسبّحون الله ويحمدونه ويكبّرونه عند كل أمر.

والحق أن التدبر سيكشف لنا أن كلا الأمرين ضروري، لأن المرء يمر بحالتين في حبه: الحالة الأولى هي أن المحب إذا فرغ من مشاغله أخذ في الحديث مع حبيبه، والحالة الثانية هي أن قلبه يظل مشغولاً بحبيبه رغم مشاغله الأخرى. فالحب يفرض على المحب أن يتفرغ لحبيبه من مشاغله الأخرى في أوقات معينة، كما يفرض عليه أن يذكره دائمًا رغم مشاغله الأخرى. وبما أن كلا الأمرين ضروري فقد أمر الإسلام بالقيام بالتسبيح والتحميد والتكبير بعدد معين في بعض المناسبات، كما أوضح ألا يكتفي المؤمن بهذا فقط، بل عليه أن يذكر الله ﷻ قيامًا وقعودًا وأن يظل لسانه رطبًا بذكره ﷻ دائمًا. وهكذا يكتمل حب المؤمن، ولكنه لو قال في نفسه أنه سيذكر الله ﷻ في أوقات معينة ولا حاجة أن يذكره فيما سواها لكان معنى

ذلك أنه ليس مستعدًا لقضاء كل أوقاته في ذكر الله ﷻ، مع أن المؤمن الحقيقي من يذكر الله ﷻ في كل حين.

كان المسيح الموعود عليه السلام يقرأ علينا مقولة فارسية لأحد أولياء الله تعالى: "دل بكار ودَسْت بيار".. أي ينبغي أن تكون يد الإنسان مشغولة بالعمل بينما يظل قلبه مشغولاً بذكر الله ﷻ. وكذلك يُقال عن أحد أولياء الله ﷻ أن أحدًا سأله: كم مرة أذكر الله ﷻ؟ قال: تذكر حبيبك وتعدّ المرات؟! فالحق أن الذكر الحقيقي هو ما يكون بدون عدّ وحساب، ولكن من فوائد تحديد وقت معين لذكر الله أن الإنسان يتفرغ فيه كلية من مشاغله لذكر حبيبه. ولا بد من كلا الأمرين، لذا فالطريق السليم أن يقوم المرء بذكر الله ﷻ في أوقات محددة، وأيضًا في أوقات غير محددة، فيذكر الله ﷻ قيامًا وقعودًا ويذكر مننه وأفضاله كل حين.

والصفة الثالثة التي بيّنها الله ﷻ للمؤمنين هي قوله ﷻ: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.. أي أنهم لا يظلمون أحدًا ولكن إذا ظلمهم أحد فما وهنوا وما استكانوا، بل تصدّوا للظالم بكل شجاعة.

هذه السورة مكية حين لم يكن الإذن بالجهاد قد نزل بعد، فالواقع أن هذه الآية كانت بمثابة نبأ من الله ﷻ بألا يظن العدو أن تضحيات المسلمين الذين يتحملون ما يصب عليهم من ظلم واضطهاد ستذهب سدى، بل سيأتي يوم نسمح لعبادنا المقهورين المضطهدين بالتصدي للعدو، ولكنهم لن يعتدوا عندها على الظالم، بل سينتقمون منه بقدر ظلمه.

وأخيرًا، يذكر الله ﷻ أكبر دليل على صدق محمد ﷺ فيقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.. أي أن الظالمين سيرون عن قريب مصيرا تعيسًا، بمعنى أن الفرق بين عباد الشيطان وأنبياء الله ﷻ القدير على كل شيء أنه تعالى ينصر عباده، ولكن الشيطان لا يقدر على شيء، فسوف يأتي الله بنصره وسيرى الظالمون مصيرهم، وبالتالي سيعلم العالم أيّ الفريقين كان يتبع الشيطان: الظالمون أم المسلمون؟